كلمة البروفسور الأب سليم دكّاش اليسوعيّ،
رئيس جامعة القدّيس يوسف،
في تقديم المهندس هنري صفير ورواية "أشنار"،
في قاعة بيار أبو خاطر، حَرَم العلوم الإنسانيّة،
يوم الخميس، الواقع فيه ٢٩ أيّار ٢٠١٤.

نيافة الكاردينال غبطة البطريرك مار نصرالله بطرس صفير،
Son Excellence Mgr Gabriel Caccia،
صاحب المعالي وزير العمل الأستاذ سجعان قزي،
أصحاب السعادة والمعالي دولة الرئيس الياس الفرزلي،
صاحب السيادة المطران بولس روحانا،
أيّها الحفل الكريم،

أهلاً وسهلاً بكم جميعًا أيّها الأعزّاء، يا من أتيتم إلى الجامعة اليسوعيّة لاستقبال المهندس الأستاذ هنري صفير، وروايته **أشنار** وما أدراكم من هو أشنار وما هي رواية أشنار.

كلُّ شيء في حياة الأستاذ والصديق هنري صفير يصبُّ في خانة أن لا يكون روائيًّا، قاصًّا وأديبًا. فهو كما تقول النبذة عن حياته عارفًا في العلوم، ومتخصّصًا في الهندسيّات وبارعًا في الاقتصاد وممعنًا في السياسة من البابوج إلى الطربوش، واقتصاديًّا له في القطاع الصناعي طولُ باع، وفي القطاع المصرفي قدرة الاختصاص في إدارة الأموال ممارسة وتدريسًا. ونحن نعرف أنّ اسم هنري صفير هو المرادف للإعتدال والوسطيّة لا لأنّها تختزل الأطراف بل لأنّها نبع للمواقف المتّسمة بالحكمة والاتّزان.

وهمّه في هذا المجال وبخصوص المجال اللبناني أن تكون الموالفة هي القاعدة التي ينبغي أن تُترجم في بناء العلاقة الصحيحة أكانت اجتماعيّة أم سياسيّة بين أبناء الوطن ليصبحَ وطن الوحدة في إطار التعدّديّة السمحاء، كأنّها هديّة السماء إلى الأرض، في وقتٍ أصبحت هذه التعدّديّة حالة عامّة حتّى في جزيرة القُمُر أم في محيط الصين الواسع.

ومن يزر دار التلّة في ريفون، لا يسعه سوى أن يدخل خاشعًا وكأنّه في صرح جامعة، وأمام مكتبة تعجُّ بالكتب النفيسة وأمام هذه اللائحة الطويلة العظيمة من اللوحات الجماليّة التي صوّرتها يدُ الإنسان وكأنَّ ملاكًا من السماء حرّكها وقادها، وفي صحن كنيسة تحمل إليها الأنوار من كلّ حدبٍ وصوب روحًا قدسيًّا يبثُّ في المكان وحوله وعلى كسروان الفتوح هالات من المحبّة والهدوء وعمق النظر وإرادةً بأن تحمل دارُ التلّة رسالةً أبعد من حجر وأوسع من جنائن خضراء معلّقة، هي رسالة العلم والخير والوئام على الجميع.

إنّه هنري صفير صاحب الكتابات المتعدّدة خصوصًا في أحوال الموارنة والمسيحيّين، يتمرّد دومًا على العجز والضياع وعلى كثرة الكلام من غير مردود وعلى قلّة الانتظار في إطار مشروع متميّز، محاولاً استخراج القيمة المضافة في سبيل نهضةٍ لم تزل بطيئةً للخروج من جدليّة الفكر والإيمان، والهويّة والانتماء.

أهلاً وسهلاً بكم حضرةَ المهندس الأديب، أيّها الحكيم والباحث عن الحقيقة المطلقة مع أشنار الفينيقي، الجبيلي المنبت ، النبيل العرق والرياضي المتمرّس، تدعونا إلى رحلة طويلة من بيبلوس فخر المدن الفينيقيّة الساحليّة إلى أثينا عاصمة اليونان ومهبط الحكمة ومرتع الحكماء، ثمَّ تقودنا إلى منسك عبقت فيه روح التجرّد والزهديّات وإلى بابل العظيمة المتبلبلة اللسان.

نراه أشنار، وكأنّه صنوَ المهندس هنري صفير متمرّدًا على حالة سياسيّة معيّنة تحوّلت بموجبها مملكة بيبلوس إلى بلدةٍ تابعة أحيانًا إلى مصر مع عنجهيّتها كما يقول الكتاب، أو لأهل بابل وحكم بابل.

نراه أشنار يقرِّر الرحيل من ضغط الاحتلال للانتقال إلى قبرص ومنها إلى أثينا وجبل الأولمب لمحادثة الآلهة وللتداول مع أفلاطون الفيلسوف وغيره من الفلاسفة في أكاديميّة أثينا، للبحث عن حجر الفلاسفة أو عن الجوهرة المفقودة الذي يفتح الباب أمام الحريّة.

ولا غرو فلا حقيقة مطلقة تسكِّن القلب سكونًا فيه مرضاة، إن لم تتعزّز بالشعور بالحريّة وإن لم يؤكّدها الحبّ الأمين العميق، وأشنار يغرق في حبّ ميساء في معبد أدونيس بعد عودته من رحلة الأفكار والنظريّات. ها هو يصغي إلى ميساء تقول: "أنت تتصوّر السعادة في طلب المعرفة هل تعتقد أنّ السعادة تكمن في المعرفة فقط ويمكن لها أن تكتمل من غير أن تتجسّد بالوجود"؟ وتركها أشنار إلى الناسك وإلى تجربة بابيليّة جديدة إلاّ أنّه في ختام سعيه عاد إليها وقد اختبر أنّ لا حقيقة مطلقة بل نسبيّة حيث إنّ الشعور بالوجود هو أساسي بقدر الشعور بالجوهر.

مع أشنار هنري صفير، أتوقّف عند ثلاث:

الأولى إنّي أعجبت شديد الإعجاب باللغة العربيّة المنمّقة الجميلة السهلة وبالأسلوب الواضح الكامل السلاسة، ممّا يضع هذا الكتاب في مصاف المرجعيّة اللغويّة والأدبيّة. فلا صرف ولا نحو يرتفعان أمام هنري صفير عائقًا.

الثانية إنّي رأيت في الرواية كنز معلومات ومعارف كثيرة عن فينيقيا وعن بيبلوس وأثينا وبابل لم أكن أعرفها والكاتب في هذا المجال دقيق الملاحظة عارف بكلّ شاردة وواردة، فإمّا إنّه حفظ عن ظهر قلب كلّ ما يمتّ بصلة إلى بيبلوس وقبرصُ واليونانُ وبابل، وإمّا إنّه في أثناء تأليفه كان يستقي من المراجع الجمّة الأصيلة، المعلومات المفيدة ليضبط إيقاع روايته أيّما إيقاع.

وثالثًا هذه الرواية هي إبنة الزمان والمكان، حصلت أحداثها منذ آلاف السنين إلاّ أنّ مواضيعها لا زالت حاضرة معاصرة لكلّ فتى وشيخ وكهل، أكان ذلك في السياسة أم في الاجتماع أم في العقل والعاطفة والحبّ، أم في علم النفس أم الأركيولوجيا وغيرها من العلوم.

هنري صفير روايتك هي قصّة كلّ إنسان منّا وأنت بذلك أنت أخو كلّ إنسان فلنضمّ صوتنا إلى صوتك يدعونا إلى مزيد من البحث عن الحقيقة وعن المصالحة مع الذات وعن المحبّة والموالفة.

وأستعيد آخر كلمة في الكتاب حيث تدعو القارئ أن يعتمد موقف أشنار ألا وهو أن يكون متواضعًا وديعًا ليصل إلى واقع الأرضيّات وإلى أعالي السماوات.